التوحيد دعـوة
جميع الأنبياء والمرسلين

(١)

﴿وَمَـا أَرْسَلْنَا مِن قَـبْلِكَ مِن رَّسُـولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْـهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَـاعْـبُـدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

بعث الله تعالى الأنبياء والمرسلين لهداية البشر إلى عقيدة الوحدانية، ونبذ كل ما سواها من عبادة الأصنام والأوثان، والبشر المعبودين من دون الله بدون حق .. وعبادة كل ما سوى الله الخالق المعبود بحق إلها وربا للعالمين فساد وإفساد فى الأرض، فضلاً عن أنها منافية ومجافية لإنسانية الإنسان، ومهينة ومذلة لكرامته، وآدميته التى كفلها له خالقه ورازقه وذلك باسجاد ملائكته لآدم أبى الإنسان الأول - عليه السلام.

والكريم سبحانه جلت قدرته، وتباركت أسماؤه - كما كرم أبا البشر بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه. كان عز وجل رحيماً أيضاً بذرية آدم عليه الصلاة السلام، فلم يدعهم هملا، ولم يتركهم - بعد أن خلقهم - عبثاً، بل اقتضت رحمته بعباده، أن يرسل إليهم من يأخذ بأيديهم فيبين لهم سبيل الحق والخير والنور فيسلكونه، وطريق الضلال والهلاك والظلام فيتجنبونه، ولم يكن سبيل الحق والخير والنور والفلاح فى الحياة الدنيا والحياة الآخرة متحققاً وموجوداً إلا فى ظل الحياة تحت راية وحدانية الله تعالى إلهاً ورباً واحداً ولم تتخبط البشرية فى دياجير الضلال، وظلمات الهلاك وطغيان البشر، إلا وكان الشرك، والإشراك بجميع صنوفه وأشكاله سيد حياة هؤلاء البشر، ودستور حياتهم الدنيوية.

* * *

سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام وهو الأب الثانى للبشر لم يدع قومه إلا بدين التوحيد، وعبادة الذى لا إله إلا هو رب العالمين قائلاً لهم: ﴿أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا

وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٦ - ٢٩] وقال لهم أيضاً: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

* * *

ودعوة سيدنا إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - خليل الله عز وجل وأبى الأنبياء صلى الله تعالى عليهم وسلم. كانت امتداداً لدعوة التوحيد، توحيد الله عز وجل إلها ورباً واحداً ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللاَّعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢ - ٦٧].

وهذا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يدعو فرعون وملأه إلى عبادة الله عز وجل الذى لا إله إلا هو، ولكن فرعون الذى فرض نفسه إلهاً من دون الله، أبى واستكبر مؤثراً أن يكون معبوداً بالباطل على أن يكون عبداً للإله المعبود بحق خالقه، وخالق كل شئ سبحانه وتعالى. ولنقرأ هذا الحوار - الذى دار بين نبى الله موسى عليه السلام وبين فرعون - الذى يُظهر جهل فرعون أو تجاهله برب العالمين سبحانه. وتناقضه مع نفسه حين يصف رسول الله بالجنون رغم إقراره برسالته فيقول: إن رسولكم الذى

أرسل إليكم لمجنون ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٣– ٢٨].

وذلكم سيدنا هود – عليه الصلاة والسلام – يدعو بدعوة إخوانه الأنبياء والمرسلين صلى الله تعالى عليهم وسلم ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى الَّذِى فَطَرَنِى أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥٠، ٥١].

إن هذه هى دعوة الوحدانية، وهى فى الوقت نفسه دعوة محاربة الشرك والوثنية وكل عبادة ابتغى بها سوى المعبود بحق خالق السموات والأرض، الذى يرجع إليه أمر الدنيا والآخرة. دعوة التوحيد هى دعوة سيدنا عيسى – عليه الصلاة والسلام – وهو برئ من كل من ألهه من دون الله تعالى، فلم يدع إلا بدعوة إخوانه من الأنبياء والرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦ – ١١٨].

* * *

(٢)

شاءت إرادة الله تعالى، واقتضت رحمته بالناس أجمعين أن يبعث إليهم أنبياء ورسلاً، كما ذكرنا ذلك سابقًا واختتمت رسالات هؤلاء الأنبياء والمرسلين برسالة سيد الخلق محمد ﷺ التى جاءت تأكيداً للرسالات السابقة، ولاسيما الدعوة إلى عقيدة التوحيد ورفض جميع أشكال الشرك بالله عز وجل. فكان مما نادى به نبى الإسلام – فى بداية دعوته – «يا أيها الناس قولوا **لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب** وتدين لكم بها العجم فإذا آمنتم كنتم ملوكًا فى الجنة»(١) أى أن الإيمان بوحدانية الله تعالى إلها وربا واحدا يحقق للمؤمنين به مطالبهم الدنيوية والأخروية وهما السيادة فى الأرض. والنعيم الأبدى بعد الموت وكل إنسان سَوِّى لا يبتغى من حياته وبعد موته سوى هاتين الغايتين: السيادة التى أساسها **الحق والعدل**، والسعادة الدائمة إذا غادر هذه الحياة. وهذا المطلبان الأساسيان اللذان يحققهما الإيمان بوحدانية الله هما جوهر الإسلام كله فالإسلام لم يهمل الدنيا فى مقابل دعوته إلى الآخرة، ولم يهمل الآخرة فى مقابل الترغيب فى الدنيا، وإنما جاء ودعا إلى عمارة الدنيا بشروطه لكى ينال الأخرة بتطبيق هذه الشروط فى الأولى.

وشهادة **لا إلــه إلا الله** لها أبعادها ودلالاتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية العميقة فى حياة الفرد والجماعة، وسوف نتحدث عن كل من هذه الدلالات، مبينين بالشواهد التاريخية لماذا حوربت هذه الشهادة، وخاصة من قبل السلطة الحاكمة الظالمة، ولماذا كانت الاستجابة لهذه الكلمة، والدفاع عنها من الفئة المحكومة لمغلوبة على أمرها أو «الأراذل» كما وصفوا بذلك، وكما حكى عنهم القرآن الكريم.

* * *

إن كلمة التوحيد لها معان عظيمة وكبيرة إذا مورست هذه المعانى حياتيًا، وطبقت عمليًا يحيا الإنسان حياة تظللها العدالة والحب، والاستقامة، لأن هذه الكلمة لاغية لجميع الفوارق الاجتماعية، والسياسية، فعلى صاحب السلطان واجبات يجب أن

---

(١) زاد المعاد جـ ١.

تؤدى قبل أن تكون له حقوق.. مثل المحكوم سواء بسواء، وعندئذ تتحقق السعادة الدنيوية قبل الأخروية، وهذا معنى قول الرسول ﷺ للناس معلنًا دعوة التوحيد هادمًا عبادة الصنم والوثن سواء كان هذا الصنم أو الوثن حجرًا، أو تمثالاً، أو بشرًا، أو مالاً، أو منصبًا أو سلطة أو شهوات جسدية قال عليه الصلاة والسلام كلمته هذه مدوية فى أرجاء البلد الحرام: «أيها الناس قولوا **لا إله إلا الله تفلحوا**، **وتملكوا بها العرب** وتدين لكم بها العجم فإذا آمنتم كنتم ملوكًا فى الجنة».

ومادامت «لا إله إلا الله» السبب والسبيل للفلاح فى الدنيا والفوز بالنعيم فى الآخرة كما أشرنا آنفًا، فلماذا حوربت وقوومت، وعذب ونكل كل من آمن بها ودافع عنها، هل الإنسان عدو سعادته، وخصم ألد لفلاحه؟.

إن الذى يعادى ويخاصم كلمة التوحيد صنفان:

أحدهما: شخص غير سوى، أبطل عقله وتفكيره وضحى بهما فى سبيل ما ألفه من عادات وتقاليد أسلافه وأجداده، وعز عليه أن يفارق أو يخلع عما تعارف عليه وورثه تقديسًا للقديم وإن كان **خطأ وباطلاً** ورفضا للجديد وإن كان **حقًا وصدقًا**، والقرآن يقص علينا من أمثال هذه النماذج الكثير مثل: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [الشعراء: ٦٩ – ٧٤] ومثل قوله تعالى عن قوم سيدنا صالح عليه السلام ﴿**قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ**﴾ [هود: ٦٢] وربما يندرج ضمن هذا الصنف من يرفض الحق لأجل الرفض فقط، ولو ظهرت له دلائل الحق وبراهينه ساطعة جلية مشرقة وهذا الصنف صوره القرآن الكريم حاكيًا هذه النفسية المعوجة المنحرفة قائلاً ﴿**وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الأنفال: ٣٢]. ومثل هذه النفسية معوجة ومنحرفة لأنها ضد الفطرة السليمة الحريصة على الوصول إلى الحق، الداعية خالقها عز وجل أن يهديها ويرشدها إلى الصدق والحق المبين وليست متعنتة وجامحة وموغلة فى الكفر والنكران الجحود.

* * *

والصنف الآخر الذى يعادى دعوة الوحدانية هو صاحب السلطان والنفوذ والسطوة الذى يريد أن يعبد فى الأرض من دون المعبود بحق الله رب العالمين مثل فرعون وقارون وغيرهما، والعبادة يتسع معناها ليشمل التفرد بالرأى والأمر والنهى كما قال فرعون ﴿ **مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ** ﴾ [غافر: ٢٩].

وقد ابتلى العصر الحديث بجراثيم وعلل الفرعونية والقارونية فاغتصب قوم السلطة وجلسوا على سدة الحكم وحسبوا أنفسهم زعماء فصاروا يحكمون بالحديد والنار والإرهاب بالإعدام أو التعذيب فى ظلمات السجون حتى الموت على كل من يخالفهم الرأى ولو كان صائبًا، أو من يقدم لهم النصيحة لا يقصد بها إلا الإصلاح والعالم الثالث وبعض الدول العربية خير شاهد لحكم الفرد الذى يعتقد زوراً وبهتانًا أنه لا ينبغى أن يرى رعاياه إلا ما يرى كما قال فرعون لموسى منذ آلاف السنين.

والنجاة النجاة من بطش الحكام الفراعنة، ومن ظلم ذوى الثروة والمال القارونيين، النجاة من هؤلاء وأولئك هى إقامة دولة خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله الها وربًا واحداً، الكل عباد له سبحانه حكامًا ومحكومين، لا تفضل على بعضهم البعض إلا بتقوى الله الواحد الأحد.

ومن هنا كان منشأ ومرجع خوف ورعب وهلع الحكام والملوك والسلاطين الذين طغوا فأكثروا فيها الفساد من كلمة لا إله إلا الله، لأن الإيمان بهذه الكلمة يعنى زوالاً وتدميراً لنفوذهم وتسخيرهم واستغلالهم واستعبادهم عباد الله تعالى الذى خلقهم وكرمهم ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٧٠].

ولقد أدرك خطورة كلمة لا إله إلا الله بمعانيها وأبعادها العميقة والكبيرة أدركها عربى بفطرته السلمة، وبذكاء قلبه النابض بالحياة فعندما سمع هذا العربى النبى ﷺ فى بداية دعوته إلى دين التوحيد، يأمر الناس بقول: لا إله إلا الله قال ذلك العربى: هذا أمر تكرهه **الملوك** كذلك قال للرسول عليه الصلاة والسلام رجل آخر أوتى – أيضًا – بصيرة وفقهًا فى القلب – معقبًا على كلمة التوحيد نفسها، إذن تحاربك – أى يا محمد – العرب والعجم.

وكأنى بهذا العربى، أو كأنى بهذه الحكمة، حكمة ذلك الرجل البدوى الذى لم يجلس إلى معلم، ولم يقرأ كتاباً فى علم النفس السلوكى، أجل! كأنى بهذا الإنسان ذاق وعانى مرارة وقسوة حكم الفرد المعبود من دون الله تعالى بدءا من فرعون موسى عليه السلام إلى أن تشرق الشمس من مغربها.

وكأنى بالعربى الفطن الحكيم لم يدرك مساوئ ومهالك ومفاسد حكم الفرد وحسب. وإنما وعى وعلم ظلم وطغيان دولة القوة المادية والعسكرية الواحدة أيضاً. التى تظن الظن السيئ أن العالم كافة يجب أن يدين ويركع لها. ولنظامها السياسى والاقتصادى والاجتماعى، إذا أرادت أن تعيش، وإلا فالطائرات المحملة بأدوات القتل والتدمير والتخريب مستعدة، والسفن الناقلة لهذه الطائرات تجوب المحيطات لمن يعلن عصيان أوامر السيد المهاب، أو لمن يفكر أن يخرج عن صف القطيع.

* * *

إذن البعد عن منهج لا إله إلا الله خسارة كبرى للإنسانية جمعاء لأنه ينتج عن هذا البعد جميع صور الظلم والطغيان والاستبداد السياسى والاقتصادى والسياسى ذات المعايير، المتعددة لأن الحاكم الفرد الكافر بألوهية وربوبية الواحد، ينصب ذاته بديلا للإله المعبود بحق بعد أن نسى بشريته وحياته المحدودة، فهو إذا قال يجب أن يسمع وإذا أمر يجب أن يطاع، وإذا نهى ينبغى أن ينتهى، وإلا فالسيف والسياف والجلاد. ويصدق على مثل هؤلاء الحكام قول القائل:

تـــلـــوا بـــاطـــلا وصـــلـــوا صـــارمـــاً

وقـــالـــوا صـــدقـــنـــا فـــقـــلـــنـــا نـــعـــم

* * *